٣ ـ المسرح المصرى
لغته وما ذا تكون ؟
للأســـتاذ دريني خشبة

الذين يزعمون أن اللغة العربية هى لغة أجنبية عن هذه البلاد هم قوم متعصّبون يتجنّون على الحقيقة كما يتجنّون على أنفسهم ، ويسيئون إلى الحقيقة بقدر ما يسيئون إلى بلادهم ... فلقد أثبتت اللغة العربية حيويتها وصلاحيتها لسكان وادى النيل فلم يمض قرن أو قرنان بعد فتح العرب مصر حتى كان المصريون جميعاً ... بما فيهم سكان الأديرة والواحات ، يتكلمون اللغة العربية ويعجبون بطواعيتها ، وقيامها بأغراض حياتهم قياماً كاملاً غير منقوص ، فأنسوا لغتهم الأصلية وآثروا عليها تلك اللغة اللينة السهلة التى مرنت بها ألسنتهم فى غير مشقة ، وأسلست لهم فى غير عسر ... ولتكن أسباب انتشار العربية فى مصر ما تكون ، فما لا جدال فيه أن المصريين لم يرغموا على التكلم بها وأنهم لم يتعاظمهم أن يهجروا لغتهم إلى لغة الغزاة الفاتحين برغم ما فى هذا الترك من مرارة على أنفسهم ، وبالرغم مما فى تعلم لغة جديدة من عَنَت وإرهاق

إن انتقال أمة بأكملها ، بل أمم كثيرة ، من لغة إلى لغة هو ضرب من السحر لا يفسره إلا امتياز اللغة الجديدة وتفردها بفضائل ليست للغة القديمة . وإذا احتج أحد بالعامل الدينى لم يستطع تعليل إبقاء الملايين من مسلمى الهند والترك وغيرهم على لغاتهم ، ثم لم يستطع تعليل فناء اللغات القديمة فى العربية التى جذبت إليها الأقليات الدينية فعرّبوا كتبهم المقدسة وأغفلوا اللغات الأصلية التى كتبت بها مع ما يكنونه لأصول هذه الكتب من إعزاز وتقديس

هذه مقدمة أوشكت أن تغرينا بكسر الكلام على اللغة العربية وصرف النظر عن المسرح ... على أننا نعود فنتساءل : هل تصلح العربية أن تكون لغة للمسرح المصرى ... ولست أدرى لماذا لا نتساءل : هل تصلح اللغة العامية أن تكون لغة هذا المسرح ؟

أما السؤال الأول فله أعداء كثيرون قامت عداوتهم على روح شعوبية منكرة ، كما قامت على كراهية للغة العربية التى هم ضعفاء فيها أغلب الأمر ، والتى لا علم لهم بأسرارها ولا ذوق أصيل يغريهم بطلاوتها وحلاوتها ، وكل أولئك الأعداء هم ممن شَدَوْا لغة أجنبية فثقفوها وبرعوا فيها قبل أن يتاح لهم نصيب موفور من اللغة العربية . ومنشأ ذلك فساد نظام التعليم فى مصر ... ذلك النظام الذى أوهى من دعائم قوميتنا — ورمزها الأول اللغة — كما أوهى من عصبيتنا لكل ما هو مصرى ... فإن مصر توشك أن تكون الدولة الوحيدة — وربما يشبهها فى ذلك الشام — التى تسمح لعدد ضخم من أبنائها ممن يتعلمون بالمدارس الأجنبية أن يتعلموا جميع المواد التى تدرس فى هذه المعاهد بلغة غير لغة البلاد ... فالحساب والجغرافيا والتاريخ والعلوم والرسم والهندسة والأشغال وما إلى ذلك يدرس كله بلغة أجنبية وبواسطة معلمين من الأجانب ... وهكذا يفقد هذا العدد الجم من أبنائنا مصريتهم ، وينسون لغتهم ، لأنهم يذهبون إلى تلك المدارس وهم صغار لم يعدوا الرابعة أو الخامسة من عمرهم ، أى فى السن التى يصلحون فيها للتكييف حسبما تشاء المدرسة وعلى الصورة التى تهوى سياستها وسبب إنشائها ... ولقد آن أن نفهم أن الاستمرار فى السماح لتلك المدارس بأن يظل منهاج الدراسة بها على هذا النحو هو أشنع ضرب من ضروب الخيانة الوطنية . ولا يقل عنه سماحنا لأبنائنا بالذهاب إلى تلك المدارس ... وهو هذا الجزء البغيض من تلك الخيانة الذى نصنعه بأيدينا . على أن الآباء الذين يدفعون بأبنائهم إلى تلك المدارس يدفعون اعتراض كل معترض بحجج لها وجاهتها أحياناً ... ولسنا نرى ما ذا يمنع وزارة المعارف من تدارك أوجه النقص التى تعتور نظام التعليم فى مدارسها حتى لا تنهض لأولئك الآباء حجة فى العدول بأبنائهم عن مدارسها ؟ على أن التفات المدارس الأجنبية إلى تعليم البنات وتطبيعهن على الطابع الأجنبى كان خليقاً أن يفتح أعين وزارة المعارف فتقاومه بفتح المدارس المصرية الراقية فى كل مدينة بها مدرسة أجنبية تغشاها الفتاة المصرية التى لا تجد مدرسة أخرى فى بلدتها لتتعلم بها ... والحق أنه لم يعد معنى مطلقاً أن توجه الدولة ٩٥ ٪ من اهتمامها إلى تعليم الذكور ، ولا توجه إلى ما تبقى من تلك النسبة المئوية التافهة لتعليم الأناث . وسنظل فقراء فى قوميتنا ، مدخولين فى مصريتنا ، بائسين فى لغتنا ، ما دامت الدولة تقصر هذا التقصير الشنيع

فى تعليم الفتاة المصرية ، صارفة معظم عنايتها إلى تعليم الذكور دون الأناث ، مع علمها بأن البنت هى التى تصنع الأمة ، وأن نصيبها فى ذلك هو أضعاف نصيب الذكر .

ونحن إنما نسوق هذا الكلام فى معرض الحديث عن لغة المسرح لما له من الصلة الوثيقة به ... لأننا نتكلم باللغة العامية ونتعامل بها فى حين أننا نقرأ الكتب والصحف ونصغى إلى الراديو والخطب الضافية في المساجد والكنائس ، والمحاضرات الضافية فى النوادى ودور العلم ... ثم نحن نكتب فى مدارسنا وفى معاملاتنا ومراسلاتنا باللغة العربية الفصحى ، أو ما يقرب من اللغة العربية الفصحى ... وفى مصر اليوم أكثر من ثلثمائة جريدة ومجلة تصدر يومياً أو أسبوعياً أو كل شهر وكلها مدبجة بهذه اللغة العربية الفصحى ... ومن هذه الجرائد ما كان يصدر يومياً فى ست عشرة صفحة وفى ثمانى وأربعين صفحة محررة باللغة العربية الفصحى ونذر ما كان يعثر القارئ فيها جميعاً بغلطة فى اللغة ... ومن مجلاتنا عدد لا بأس به يعنى بالأسلوب فلا يسمح ركاكة أو لحن أو إسفاف أو دنو من العامية حتى فى أبسط ألفاظها ... فهل قال أحد إن أى مستمع من عامة الشعب ممن لا يتكلمون العربية الفصحى وممن لا يخطر لهم استعمالها على بال ، لا يفهم ما يصغى إليه من موضوعات تلك المجلات وتلك الصحف وما يستمع إليه فى خطب المساجد وعظات الكنائس ومحاضرات الوعاظ العامة وإرشادات الإذاعة وأغانيها المنظومة بالعربية من قصائد وموشحات ؟

الحق أن عامة المصريين ، بل عامة الأمم العربية ، تجيد فهم الأساليب العربية وتسيغها ... ولو لم تكن هذه العامة متعلمة ، ولو لم يكن لها بصر بطبيعة تراكيب تلك الأساليب ... وما دامت هذه العامة تفهم تلك الأساليب ولا تضيق بها ، بل هى تلتذها أحياناً وترددها فى أغانى كبار المطربين وفى أحاديث الرسول الكريم التى تحفظها عن ظهر قلب ، وفى آيات القرآن التى ترددها وتمزج بها حياتها فى صلواتها وأدعيتها ، وفى آيات الكتب المقدسة الأخرى ... فليس من العسير أن تحاول الدولة التمهيد لإحلال العربية الفصحى محل هذه اللهجات الدارجة المتعددة ، وذلك بتعليم الفتاة المصرية وتنشئتها فى بيئة مدرسية عربية لا يؤذن فيها بتعلم لغة أجنبية حتى تبلغ الفتاة الثانية عشرة على الأقل ، وحتى تكون قد أنضجت فيها قوميتها المصرية التى تعتبر اللغة العربية أكرم مقوماتها ... ونحن نلاحظ أن الطبقات المتعلمة فى مصر وفى الشرق العربى عامة ، أقل استعمالاً للهجات الدارجة من سائر طبقات الشعب غير المتعلمة ... فمعظم طبقات المتعلمين فى مصر وفى الشام وفى العراق يداولون أحاديثهم بينهم باللغة العربية ، أو ما يقرب أن تكون لغة عربية خالصة ، اللهم إلا ما تقضى به العادة من استعمال العامية فى مجرى الحديث فى غير وعى ... فالتعليم إذن هو الوسيلة الوحيدة لإحلال العربية الفصحى محل العامية الدارجة ... أما عنايتنا بتعليم الفتاة خاصة فذاك أنها هى التى تتولى تربيب أطفالنا فى سنيهم الأولى ، فهى كفيلة إذن أن تصقل ألسنتهم ، وأن تفهم عن المدرسة ما تهدف إليه من مطامح وأغراض ، فهى على مساعدتها أقدر من الأم الجاهلة المغرقة فى الأمية ، ومن الأم التى تعلمت فى مدرسة مصرية عرجاء ، أو فى مدرسة أجنبية تعنى أول ما تعنى بمحاربة القومية المصرية فى كل مشخصاتها وأهم تلك الشخصات اللغة التى لا تستحيى بعض طبقاتنا الراقية ممن تعلموا - أو تعلمن - فى مدارس أجنبية من هجرها واحتقارها ومداولة الحديث بلغة أجنبية حيث لا يكون فى المجلس أجنبى واحد ... هذه كارثة اجتماعية ينبغى أن تعالجها الدولة بما يجب لها من جهد ... وليس على الأرض قاطبة لغة أشرف من لغتنا لو وجدت من يخدمها فى إخلاص ونصح ...

وإلى أن يتم هذا الإصلاح ، وإلى أن تلتفت الدولة إلى خدمة اللغة العربية على النحو الذى تراه ، لا نرى مندوحة من الصراحة فى القول ونحن نتحدث عن لغة المسرح المصرى وما ينبغى لها أن تكون فى الوقت الحاضر ، من أن نوصى باللغة العامية خيراً فى هذا الحديث ... فللغة العامية محاسنها التى لا تنكر ، ومن هذه المحاسن ما تتفرد به ، وما لا يؤديه شىء فى العربية الفصحى إلا حيثما تفشو ، هذه العربية الفصحى ، بين الناس بحيث تختلط بدمائهم وألسنتهم كما تختلط العامية الآن ... وليس الخير الذى نريد أن نوصى به للغة العامية هو الخير المطلق الذى يجعلها لغة المسرح عندنا ... كلا ... وإلا كنا ندعو إلى شر لا إلى خير ، وإلى نكسة لا إلى نهضة ، فليست لغة غير اللغة العربية تصلح للمسرح المصرى خصوصاً فى الروايات المترجمة التى كان يقبل الجمهور عليها إقبالاً شديداً فى فجر نهضتنا المسرحية التى كان يضطلع بها الشيخ سلامة حجازى وجورج أبيض وعبد الرحمن

رشدى والشيخ أحمد الشامى وأحمد سماحة ، والتى ازدهرت أيما ازدهار فى السنوات الأولى من حيـاة مسرح رمسيس قبل الانشقاق المشئوم الذى مزق وحدة الممثلين المصريين البارزين والذى انتهى إلى تلك العواقب المحزنة التى لم يسلم منها إلى اليوم . ولا يفوتنا أن نذكر الفرقة القومية بهذه المناسبة ... فلقد كانت اللغة العربية هى لغتها الرسمية ، وكان يرجى الخير كل الخير من هذه الفرقة العتيدة التى قضت عليها سياسة قصر النظر ... تلك السياسة المرتجلة التى كانت تريد أن تجعل من هذه الفرقة مشروعاً تجارياً فلم تعرف لها حقها الثقافى ، ولم تعرف لأبطالها مقدرتهم على الاضطلاع بالنهضة المسرحية وحسن استعدادهم لأداء مهمتهم فضربت بهم عرض الأفق ، وقبضت عنهم كفها ؛ مما نرجو أن نعرض له عند الكلام عن فرقنا التمثيلية ... ونأمل ألا يغضب كلامنا هذا أحداً من أبطال التمثيل فى مصر ، وألا يترك ثناؤنا على زيد غضاضة فى نفس عمرو ... فقد آن أن يكون عمل الجميع خالصاً لخير المسرح

وقصار النظر هم الذين يزعمون أن تمسك الهيمنين على الفرقة القومية باللغة العربية هو الذى قضى عليها ... بل قضت عليها عوامل أخرى سنعرض لها فى حينها إن شاء الله ... فاللغة العربية يجب أن تكون اللغة السائدة فى جميع الروايات المترجمة . أما الروايات المصرية فمسألة فيها نظر ...

وإليك أيها القارئ بعض الأسئلة التى تتبادر إلى ذهنى وذهنك بهذه المناسبة :

هل يجوز أن يدير الممثل (فلان) الجزار أو البواب أو الخادم أو بائع المقانق (السجق ولا مؤاخذة !) حديثه باللغة العربية فى زماننا الذى نحن فيه ؟

وهل نستطيع أن نخلق جواً كوميديا (هزلياً) باللغة العربية الفصحى دون أن تنتهى جهودنا إلى الغثاثة والسخف ؟

وهل نستطيع الاستغناء فى جميع رواياتنا الكوميدية عن لهجاتنا المضحكة المرحة من (صعيدى وشرقاوى وبربرى وشامى ومغربى ؟)

وهل نستطيع الاستغناء عن أمثالنا العامية الفياضة بالحكمة وعن نكاتنا القومية التى لا يعقل أن ترسل بغير اللغة العامية ؟

وهل نستطيع الاستغناء عن الفولكلور المصرى كله طفرة من غير أن نمنح أنفسنا مهلة ليكون لنا فولكلور آخر لا غنى لحياتنا الأهلية عنه ، إلى أن نستعرب تمام الاستعراب ؟

... ولنسأل أنفسنا هذا السؤال أيضاً :

هل فى أوروبا أمة استغنت تمام الاستغناء عن لغتها الدارجة فى مسرحها المحلى ؟

وأحسب أن الإجابة هى بالنفى القاطع عن كل الاسئلة الأولى ، ولعل السؤال الأخير فقط هو الذى يحتاج لإيضاح ...

ولا مراء فى أن جورج برنرد شو هو أعظم مسرحى عرفه العالم فى العصر الحديث ، وأكثر النقاد على أنه من أعظم مسرحيى التاريخ ، ثم هو رجل تدين له اللغة الإنجليزية بفضل كبير . وهو فى الوقت نفسه من أكبر كتابها حيث لا ينازعه المرتبة الأولى إلا واحد أو اثنان من أساطين كتابها ... وقد استطاع شو أن يجعل للغة الإنجليزية الفصحى معيناً لا ينضب من اللغة العامية ، وهو يعتبر هذه اللغة ضرورة لا غنى عنها للكمال المسرحى خصوصاً لشخصيات الرعاع والغوغاء التى يصرح أنه إن أنطقها بالإنجليزية الفصحى التى لا تعرفها ولم يسبق لها أن لهجت بها فإنه يجافى الواقع وينافر الطبع ويقلق الذوق المسرحى ، ولذلك تراه فى عدد كبير من رواياته ، خصوصاً فى ملاهيه المرحة ، يرسل حديث أحد أبطاله الرئيسيين بالعامية من أول الرواية إلى آخرها ، كما فى ملهاته كانديد Candida[1] حيث لا يتكلم برجس Burgrss إلا بالعامية ؛ وكما فى روايته : Captain Brassbound Conversion[2] (هداية الكبتن براسبوند) ، حيث لا يتكلم البطل درنكووتر Drinkwater إلا العامية كذلك . ولو أردنا ضرب الأمثال من روايات كتاب آخرين يرتفعون إلى مستوى شو لما أعوزنا ذلك . على أن الكاتب الإنجليزى سويفت كان أول من تولاه القلق على ضياع العامية

(١) مجموعة الـ Pleasant Plays

(٢) مجموعة الـ Four Plays for Puritans